وصف الطبيعة في الشعر العباسي
لوحات كشاجم نموذجاً

د. زينب عبد الكريم حمزة
الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب

Nature Description in the Abbasid Poetry – Lawhat Kashajum as a Sample

Dr. Zainab Abdul Kareem Hamza
University of Al-Mustansiriya / College of Arts

Abstract

The poetry of nature is the poetry that represents nature or some of what it included, and the environment of Shamia and Egypt at that time fertile ground and abundant news gave us a grudge of hair descriptive nature, which fascinated by the poets, and take the poet meditating, and transmitted by his pain, and forget his sorrows, and love, , As she herself complied with.

الملخص

شعر الطبيعة هو الشعر الذي يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه، وكانت البيئة الشامية والمصرية آنذاك أرضاً خصبة وينبوعاً وافراً أفرز لنا غرراً من الشعر الواصف للطبيعة والتي فُتن بها الشعراء، وأخذ الشاعر يتأمل فيها، ويبثها آلامه، وينسى عندها أحزانه، ويحبها، ويفتن بها، كما امتثلتها نفسه.

المقدمة

يلجأ الشعراء دائماً للطبيعة ويتخذونها مصدر إلهام لهم، يأوون إليها متأملين ظواهر الحياة والكون، ويستمدون منها وحي الشعر، فالطبيعة ملهمة الفنان، ومصدر الوحي، ومنبع الإلهام وتهوى إليها أفئدة الناس مهما اختلفت ثقافتهم وبيئتهم، فالإنسان بفطرته مغرم بالطبيعة، مقدس جمالها، يشاركها أشجانه وخواطره ويبادلها أفكاره ويشركها مسراته وعزاءه.

لقد كان هناك ارتباطاً وثيقاً بين الشعراء والطبيعة منذ العصر الجاهلي، وكان شعر الطبيعة أصيل عند شعراء العصر الجاهلي وهذا نتاج طبيعي لتلك البيئة الصحراوية التي كانوا يعيشون بها، فاتخذ الشاعر الجاهلي من البيئة مصدر الإلهام وفُتن بجمالها، وأخذ يُعبر عن حبه لها في أصدق التعبيرات، وقد فسر ذلك أحد خطباء العرب لكسرى حين سأله عن مساكنهم في البادية وتعلقهم بها، فقال: "أيها الملك! ملكوا الأرض ولم تملكهم، وآمنوا من التحصين بالأسوار، فمن ملك قطعة من الأرض فكسائها كلها له، يردون منها خيارها، ويقصدون ألطافها"[(١)].

تختلف الطبيعة تبعاً لرؤية الشاعر وبيئته التي يعيش فيها، ولقد كانت للبيئة المصرية والشامية النصيب الأكبر من الشعر الواصف للطبيعة نتيجة لافتتان الشعراء بهما وبمناظرهما الخلابة، وقام الشاعر بوصف الطبيعة بأبدع الألفاظ والتراكيب والتعبيرات الجمالية، وسعى لمعرفة الكون واكتشاف نواميسه، أي أنه لم يكتفي بظاهر الأشياء، بل يقابل بينهما ويستنتج منه".[(٢)] واختلفت نظرة الشاعر الفنية للطبيعة إبان العصر العباسي، وكان هذا واضحاً في بيئة الشام عند بني حمدان وبيئة مصر في القرن الرابع الهجري.

وعلى الرغم من اختلاف نظرة الشعراء للطبيعة إلا أن هناك بعض السمات المشتركة بينهما، والأخرى المرتبطة بنظرة كل شاعر، فالشعر الطبيعي منبع أصيل للحضارة العباسية بصفة خاصة والأدب العربي ككل بصفة عامة.

(١) أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص. ٦٢.
(٢) إيليا الحاوى: فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب المصري، مصر، ط٣، ١٩٨٠م، ص٨.

المبحث الأول

الطبيعة الصامتة في الشعر العباسي

الشاعر العربي القديم كان معروف بأنه شاعر طبيعة، وذلك لكثرة تأملاته بها، فهو يتخذها مصدراً للتنفيس عن آلامه وأحزانه، ويشاركها أفراحه ومسراته، وتستهويه الصحراء بحيوانها، ورمالها، ونجومها، وبرقها.

ولقد صنفت الطبيعة الصامتة إلى: طبيعة أرضية كالروض والشجر والزهر والثمر. والطبيعة العلوية كالنجوم والكواكب والمطر وفصول السنة. والطبيعة الصناعية وهي التي عمل الإنسان في تأليفها وتنسيقها كالقصور والعمائر والبساتين.

المطلب الأول

الطبيعة الأرضية في الشعر العباسي

نظراً لاختلاف البيئات والثقافات فيما بعد تطورت نظرة الشاعر العربي إلى الطبيعة أو البيئة التي يعيش فيها، فقد نجد أن الشاعر العباسي في أحيان كثيرة كان يتحول من وصف الصحراء وحيوانها إلى وصفه للأنهار والبحار والأشجار والزهريات والورود.

الفرع الأول

الأنهار والبحار

اعتنى شعراء بني حمدان بالأنهار والبحار وخاصة كشاجم، وكان لكشاجم مفردات عديدة للمائيات كالنيل والفرات ودجلة ولكنه كان متأثر تأثراً كبيراً بنهر قويق، وهذا النهر يعرف بأنه نهر موسمي أي أن مائه تجف صيفاً وتفيض شتاءً، ويروي الروضيات وتسير فيه السفن ويصطادون منه الأسماك، ويشبه دورانه بدوران (البركار الهندسي)، فوصف ذلك قائلاً:(١)

إذا ما استمد قويق السماء * بها فأمدته أمطارها**

وأقبل ينظم أنجادها * بفيض المياه وأغوارها**

وأرضع جناتها درة * فعم بالنور أشجارها**

ودار باكتافها دورة * تنسى الأوائل بركارها**

كأن هلوكا حبتها السوا * ر أو سلب الكف أسوارها**

يرى كشاجم نهر قويق رمزاً للعطاء والكرم فهو لا يبخل بالعطاء عندما تمده السماء بالأمطار ويفيض بالماء، فيوزع المياه على ما حوله من أراضي وبساتين ورياض بالعدل وبدون بخل. وكان لنهر قويق محبة خاصة في قلب كشاجم فعلى ضفتيه كان يتغزل ويشرب الخمر ويتمتع بجماله، وارتبطت صورة النهر لديه بالمحبوبة فقال:(٢)

للنهر نهر قويق * عندى يد ليس تجحد**

عشية اصطدت فيه * رشا من المزد أعيد**

(١) كشاجم: ديوانه، ص١٧٨ – ١٧٩.
(٢) المصدر السابق: ص١٣٠.

فـــــــراح يســـــــعى بكـــــــأس * مـــــــــــــدامها لا يصـــــــــــرد**

محقوقـــــــــــــة بحبـــــــــــاب * مؤلـــــــــــــف يتصـــــــــــــعد**

كأنمـــــــــــــا نظـــــــــــــم در * مـــــــــن تغـــــــــره يتولـــــــــد**

وعبر كشاجم أيضاً عن إعجابه بنهر النيل في تياره وفيضانه، ووصفه بأنه يكاد أن يكسر كل حاجز وأنه يحاصر القرى من حوله ككواكب السماء، حيث قال:(١)

كـــأن النيـــل حـــين أتـــى بمصـــر * وفـــاض بهـــا وكســـرت التـــراع**

وأحـــدق بـــالقرى مـــن كـــل وجـــه * ســـــماوات كواكبهـــــا ضـــــياع**

ووصف كشاجم النيل والزوارق التي تسير فيه ومجالس الخمر المنعقدة على جانبيه، حيث قال:(٢)

والنيـــــل مســـــتكمل زيادتـــــه * مثـــــل دروع الكمـــــاة منتثـــــرة**

تغـــدو الزواريـــق فيـــه مصـــعدة * بنـــا وطـــوراً تـــروح منحـــدرة**

والكـــأس يســـعى بهـــا مـــذكرة * أرادتهـــــا بـــــالعبير مختمـــــرة**

لقد كان كشاجم ولوعاً بالسفر والترحال، وكان يصف السفر ومشقته في شعره، فكان أثناء سفره يجتاز الأراضي السهلة والجبال الوعرة، وكان أحيانا يركب الأمواج العالية كالجبال نتيجة لاضطراب الماء في نهر الفرات فقال: (٣)

ترفعنـــــي بلـــــدة وتخفضـــــني * أخـــزى فمـــن ســـهلة ومـــن وعـــره**

فتـــــارة فـــــوق ســـــهلبة * قطاتهـــــا بالبـــــداد منعقـــــرة**

وتـــــارة فـــــي الفـــــزات طاميـــــة * أمواجـــــه كالجبـــــال معتكـــــرة**

ومدح كشاجم البحر في صورة أخرى، وجعل المتعلقين به متعلقين بسفينة نوح عليه السلام طلباً للنجاة من الغرق في هذا البحر حيث قال:(٤)

ســـفينة نـــوح فمـــن يعتلـــق * بحـــبهم يعتلـــق بالنجـــاء**

(١) كشاجم: ديوانه، ص٤٨٩.
(٢) المصدر السابق، ص٢٠٦.
(٣) المصدر السابق، ص٢٠٦.
(٤) كشاجم: ديوانه، ص٤٠٣.

ويحـــــر تـــــدفق بـــــالمعجزات * كمـــا يتـــدفق ينبـــوع مـــاء**

وقد شبه كشاجم البحر بالعلم، وطود الحلم، وأنه يبشر بالخير كالهلال في ليلة العيد، فقال:(١)

بحـــر علـــم عـــداه حجـــة خصـــم * طـــود حلـــم هـــلال ليلـــة عيـــد**

الفرع الثاني

الأشجار المثمرة

أبدع الشعراء العباسيين في وصف الأشجار والثمار لأنها من أهم مزايا الروضيات، فوصفوا لونها ومذاقها وشكلها، كما أنهم أبدعوا في وصف الفاكهة المتنوعة الموجودة بالروضيات، وهذا الأمر ليس غريباً في أن الشعراء يتفنون في وصف الأشجار والثمار نظراً لما تحويه بيئتهم العربية من أشجار ونخيل وخاصة تلك المنتشرة في جزيرة العرب والعراق ومصر. وصف كشاجم بساتين النخيل الموجودة على ضفاف نهر دجلة فقال:(٢)

لنـــا علـــى دجلـــة نخـــل منتخـــل * نســـــلفه اء وتقضـــــينا عســـــل**

مســـــطر علـــــى قـــــوام معتـــــدل * لـــم ينحـــرف عـــن ســـطره ولـــم يمـــل**

ذو قـــــدر فـــــلا عـــــلا ولا ســـــفل * يســـقى بمـــاء وهـــو شـــتى فـــي الأكـــل**

كأنمـــــــا أعداقـــــــه إذا حمـــــــل * غـــدائر مـــن شـــعر وحـــف رجـــل**

وفيـــــه عمـــــرى كعمـــــر متصـــــل * فـــي لـــون داء العشـــق لا داء العلـــل**

كالـــــذهب الإبريـــــر لونـــــاً ومحـــــل * يجمـــش الخـــود بـــه الصـــب الغـــزل**

لـــو نظمتـــه البكـــر عقـــداً لاحتمـــل * وفـــاق عقـــد الـــدر حســـناً وفضـــل**

لقد شبه الشاعر بساتين النخيل وجمالها وما تنتجه من ثمار كالعسل في مذاقه وطعمه، وصور شكله المتوسط في الطول بالخط المستقيم، ومدح أشجار النخيل قائلاً أنه يشرب من ماءً وحداً ويعطي ثمراً مختلف الأشكال والألوان والمذاق، لونه الأصفر مثل لون المحب العاشق لا لون المريض العليل كما يعتقد البعض، فاللون الأصفر مثل الذهب الخالص، وتلك الثمار إذا نظمتها الفتاة في عقد لأصبح من أروع وأحسن الدرر.

يعد الرمان من أفضل أنواع الثمار في نظر كشاجم، فوصف رائحته بالزعفران، وشبه فصوصه بفصوص من جوهر الياقوت الأحمر، فقال:(٣)

ولاح زمائنـــــــــا فزيننـــــــــا * بـــــين صـــــحيح وبـــــين فتـــــوت**

(١) المصدر السابق: ص١١٣.
(٢) كشاجم: ديوانه، ص٣١٧.
(٣) كشاجم: ديوانه، ص٤٧.

مـــــن كـــــل مصـــــفرة مزعفـــــرة * تفـــوق فـــي الحســـن كـــل منعـــوت**

كأنهـــــا حقـــــة فـــــإن فتحـــــت * فصـــــرة مـــــن فصـــــوص يـــــاقوت**

كما صور الشاعر الرمان بألوانه المختلفة الأحمر والأصفر والجوهر والمرجان، بأن البستاني جهزها ووضعها في طبق فزادت جمالاً على جمالها لشدة ألوانها الفاتنة التي تلفت الأنظار، فقال:(١)

أخضـــــرنا النـــــاطور مـــــن بســـــتانه * فـــــي طبـــــق ينطـــــق عـــــن إحســـــانه**

لونـــــاً مـــــن الرائـــــع فـــــي رمانـــــه * أهـــــدى لـــــه الجـــــوهر مـــــن ألوانـــــه**

مـــــا أحمـــــر وأصـــــفر ومـــــن مرجانـــــه * مثـــــل نـــــزول الجـــــيش فـــــي ميدانيـــــه**

مدهبـــــه فـــــي إلهـــــام مـــــن فرســـــانه * شـــــيب بريـــــق الشـــــهد فـــــي أغصـــــانه**

وصور كشاجم أيضاً ثمرة كيزان الفقاع بأنها كقطع الجلود الدائرية الململمة ذات الخيوط السوداء، فقال:(٢)

ململمـــــات الجســـــم مـــــن صـــــيخود * مقلعـــــــات قطـــــــع الجلـــــــود**

مزنـــــــرات بخيـــــــوط ســـــــود * كأنهـــــا المـــــرء مـــــن الوعيـــــد**

الفرع الثالث

الزهريات

الأزهار من أكثر المفردات المستخدمة في وصف الطبيعة في العصر العباسي ووصفها الشعراء العباسيين باختلاف أنواعها وألوانها، وساعدهم في ذلك البيئة الممطرة التي تزيد جمالها جمالاً.

وعبر كشاجم في شعره عن جمال الأزهار والورود ورائحتها العطرة ومناظرها الجميلة وهي مزينة الروضيات، واتخذها رمزاً لأغراض التشبيه والوصف في شعر الغزل، فشبه عيون محبوبته بالنرجس، وشبه وجنتيها بالبنفسج وشقائق النعمان والورد، وشبه الأقاحي بثغرها الناصع (٣)، "ووصف كشاجم الأزهار في صور جمالية مجتمعة ومنفردة من شدة ولعه بأشكالها وألوانها وروائحها ولعاً يشبه ولع ابن المعتز بها".(٤)

أبدع كشاجم في وصف أنواع الزهور المتعددة التي تكسو الأرض كالأقحوان والنرجس والبهار وغيرها.. وكان يستخدم في وصفه أسلوبا سهلا ولغة بسيطة وتشبيهات قريبة توحي بجمال وتعدد الألوان والعطور، فقال(٥):

(١) كشاجم: ديوانه، ص٣٩٣، ٣٩٤.
(٢) المصدر السابق، ص١٤٢.
(٣) كشاجم: ديوانه، ص٤٠، ص ١٦٢، ص ١٥٣، ص ٤١٧، ص ١٣٠، ص ٨٣.
(٤) عوض على الغباري: شعر الطبيعة في الادب المصري، ص ٣٣.
(٥) كشاجم: ديونه، ص ١٣١.

والأرض تكســـــي بزهـــــر الـــــر * يـــــاض وشـــــياً معمـــــد**

كـــــأن خـــــرد عـــــين * بهـــــا يضـــــاحكن خـــــرد**

وأبـــــيض اللـــــون ضـــــاح * وحالـــــك اللـــــون أســـــود**

وحمـــــرة مـــــن عقيـــــق * وخضـــــرة مـــــن زيرجـــــد**

وأقحـــــوان كمـــــا ارفضـــــ * ـــــض لؤلـــــؤ وتبـــــدد**

والنـــــرجس الغـــــض يزنـــــو * إلـــــى البهـــــار امنضـــــد**

كمـــــا أشـــــار محـــــب * إلـــــى حبيـــــب بموعـــــد**

وصف الشاعر الأزهار التي تكسو الروضيات بألوانها المختلفة، فصور اللون الأبيض بالإشراق والأسود بالحالك، والأحمر بالعقيق والأخضر بالزبرجد، وشبه زهر الأقحوان باللؤلؤ المنثور، وزهر النرجس بإنسان يتطلع إلى البهار كأنه يشير إلى محبوبته بموعد.

ووصف كشاجم مصر بالجنة التي تشتمل على جميع أصناف الرياض والأزهار بأنواعها وألوانها وأشكالها المختلفة، مثل زهر السوسن والبنفسج والورد والبهار الأصفر والنرجس، فشبه الأرض كأنها ألبست حللا من الفخار والسندس، وأيضا وصف زهر شقائق النعمان بكؤوس العقيق الأحمر، وقد عبر الشاعر أيضا من خلال أبياته عن مدى ارتباط الروض بشرب الخمر لما فيه من مناظر جمالية وأجواء تهيئ لشرب الخمر، فقال:(١)

أمـــا تـــرى مصـــر كيـــف قـــد جمعـــت * بهـــا صـــنوف الريـــاض فـــي مجلـــس؟!**

السوســـــن الغـــــض والبنفســـــج والـــــ * ـــــورد وصـــــفر البهـــــار والنـــــرجس**

كأنهـــــا الجنـــــة التـــــى جمعـــــت * مـــــا تشـــــتهيه العيـــــون والأنفـــــس**

كأنمـــــا الأرض ألبســـــت حلـــــلاً * مـــــن فـــــاخر العبقـــــري والســـــندس**

وقـــــد أحاطـــــت بهـــــا شـــــقائقها * كأنهـــــا مـــــن عقـــــائق أكـــــوس**

فاشـــرب علـــى الزهـــر مـــن معتقـــة * بحليـــــة شـــــبروية المغـــــرس**

(١) كشاجم: ديوانه، ص ٢٢٥.

المطلب الثاني

الطبيعة العلوية في الشعر العباسي

لقد التفت شعراء العصر العباسي إلى السماء وزاد اهتمامهم بالبرق والسحاب والغيث والنجوم والكواكب والثلجيات والفصليات وما يحدث من تقلبات في الليل والنهار، وذلك نتيجة للطبيعة الصحراوية التي نشأوا بها، فجعلتهم يتأملون كل ما يحيط بهم، ووصل الأمر عند بعضهم إلى حفظ جميع اسماء النجوم والكواكب.

الفرع الأول

الليل والصباح

التفت شعراء العصر العباسي إلى السماء وعبروا عن شدة إعجابهم بجمال الليل والنهار، وصوروا الليل بأجمل اللوحات المزينة بالنجوم والبدر، أما كشاجم فكان يعبر عن الليل في شعره بأنه تاره يمتعه وتارة أخرى يرهقه ويسهره كالحبيب العاشق، ويشعر كشاجم بطول الليل أما محبوبته تشعر بقصره وتنعم فيه بالسكون والراحة، فقال [١]:

ينـــــام الليـــــل أســـــهره * وأشـــــكوه وأشـــــكره**

وليـــــل الصـــــب أطولـــــه * علـــــى المعشـــــوق أقصـــــره**

وكانت النجوم صديقة لكشاجم يسهر معها ويناجيها، ويصفها بعيون الليل التي لا تنام وتشاركه خواطره، فقال [٢]:

ألا رب ليـــل بـــت أرعـــى نجومـــه * فلـــم اغـــتمض فيـــه ولا الليـــل غمضـــا**

ويرى الشاعر الليل والكواكب في صورة أخرى بأنه متقلب بين شرق وغرب، والليل تارة يمر طويلاً وتارة يمر سريعاً، فقال[٣]:

الليـــل يـــا صـــاحبي منطلـــق * يقـــاد زحفـــاً ومـــا بـــه رمـــق**

غمـــض دون الغـــروب كوكبـــه * إذ شـــفه طـــول ليلـــه الأرق**

ورق جـــــدا رداء ظلمتـــــه * فهـــو علـــى منكـــب الربـــى خلـــق**

تـــأملا الغـــرب كيـــف قابلـــه * شـــرق بتوريـــد فجـــره شـــرق**

ويرى كشاجم أن الليل رغم أنه يرهقه ويسهره إلا أنه يُحسن حالته ويمتعه، ويجده أفضل وقتاً للعمل دون أن يشغله أحد، فقال[٤]:

اتخـــــذ الليـــــل جمـــــل * مـــــا حمـــــل الليـــــل حمـــــل**

(١) كشاجم: ديوانه، ص ١٦٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٥٣.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٢، ٢٩٣.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٣٣.

والليـــــــل فيـــــــه متعـــــــة * إذ والليـــــــل أخلـــــــى للعمـــــــل**

آمـــــــن فيـــــــه زائـــــــراً * يشـــــــغلني عـــــــن الشـــــــغل**

الفرع الثاني

النجوم والكواكب

كانت للنجوم والكواكب منزلة خاصة عند كشاجم، فقد قال عن اسمه (كشاجم) أن الميم من (منجم) وهو الذي ينظر في النجوم ليحسب مواقيتها وسيرها، وهذا دليل على مدى تعلق كشاجم بالنجوم والكواكب ومعرفته باسمائهم، وظهر هذا واضحاً في شعره حيث أنه استخدم اسماء النجوم مثل الفرقد والسماك والأعزل وعطارد وغيرها، وقد استخدم اسم السماك في الطبيعة وشبهه بأنه يروي النبات فأصبحت كالعقد المنظوم، فقال[١]:

ريـــان مـــن نـــوء الســـماك الأجـــود * كالعقـــد إلا أنـــه لـــم يعقـــد[٢]**

والشمس من مفردات النجوم والكواكب، نجد كشاجم استخدمها في قوله:

شـــــمس يميـــــد بنورهـــــا * غصـــن مـــن الريحـــان مائـــد**

ارتبط لفظ الشمس عند كشاجم بالغزل والمدح ووصف الخمر، ففي المدح يشبهها بالفتاة ذات الأنوثة وما ترمز إليه من خصوبة في عالم الجذب"[٣]، وفى الغزل يجعل محبوبته كالشمس في إشراقها، فقال[٤]:

وجاريـــة مثـــل شـــمس النهـــار * أو البـــدر بـــين النجـــوم الـــدراري**

ولقد صور الشاعر وجه محبوبته بالشمس المشرقة، فعندما رحلت كان أثرها من نور ودفيء موجود في كل مكان، حتى أن القوم لم يرحلوا عندما جاء وقت الرحيل لأنهم لم يشعروا بغروب الشمس، فقال[٥]:

ووجهـــت مـــن وراء الســـجف تخبرنـــي * أن الخلـــيط غـــروب الشـــمس مرتحـــل**

قلـــت: ارفعـــى الســـجف تســـتمتع بموقفنـــا * والشـــمس مـــا غيبـــت مـــن وجهـــك الكلـــل**

فـــأبرزت وجههـــا والشـــمس آفلـــة * ومـــر ليـــل ولـــم يرحـــل لهـــم جمـــل**

لـــم يشـــعروا بغـــروب الشـــمس إذ ســـفرت * عـــن وجههـــا فأضـــاء الســـهل والجبـــل**

(١) كشاجم: ديوانه، ص٤٤٢.
(٢) المصدر السابق، ص ١١٦.
(٣) محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٤، ص ١٩٤.
(٤) كشاجم: ديوانه، ص ١٥٣.
(٥) المصدر السابق، ص ٣٢٩.

وفى المديح وصف كشاجم صديقه الصنوبري بالشمس المشرقة أو البدر المضيء، فقال [١]:

نـــــــرى فـــــــي فلـــــــك الآذا * ب كالشـــــــــمس أو البـــــــــدر**

وقد شبه آل البيت بالشمس الضحاء، فقال[٢]:

جـــــلاه فـــــإن انكـــــروا فضـــــله * فقـــد عرفـــت ذاك شـــمس الضـــحاء**

وفي الوصف استخدم كشاجم الشمس في وصف الخمر، فهي تريح الفكر وتبعد الهموم، فقال [٣]:

اشـرب مـن الشـمس علـى ضـوء القمـر * مدامـــــة تنفـــــى الهمـــــوم والفكـــــر**

ووصف محبوبته بالشمس الساطعة وسط الغيوم، فقال[٤]:

فقـــابلتني بمثـــل الشـــمس طالعـــة * والغـــيم مطـــرد والبـــذر مفتقـــد**

ويراها شمساً تحيط بها النجوم حين تصب من إبريقها، فقال [٥]:

قـــم غيـــر مـــذموم القيـــام فإننـــا * ســـنقيم ســـوق اللهـــو حـــين تقـــوم**

هـــذا الصـــباح فأضـــحك الإبريـــق عـــن * شـــمس تحـــف بهـــا لـــدى نجـــوم**

واستخدم كشاجم الشمس بغرض الرثاء والانتقال من غرض لغرض، فجعل كسوف الشمس رمزاً للموت وغياب الحياة، فقال في رثاء عبد الملك[٦]:

هاتيـــك شـــمس المجـــد مكســـوفة * وإنمـــا تكســـف شـــمس الفلـــك**

وقال في رثاء أبيه:[٧]

شمســـي هـــوت مـــن فلـــك الـــ * ـــــمجد وللمجـــــد فلـــــك**

(١) المصدر السابق، ص ٢٠٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٤.
(٣) المصدر السابق، ص ١٨٤.
(٤) كشاجم: ديوانه، ص ١٤٤.
(٥) المصدر السابق، ص ٣٥٠.
(٦) المصدر السابق، ص ٣٠٣.
(٧) المصدر السابق، ص ٣٠١.

الفرع الثالث

الثلجيات والبرق والسحاب والغيث

أ . الثلجيات

إن الثلجيات من الفنون المستحدثة في الشعر العربي، وقد استخدمت للمرة الأولى عند شاعري بني حمدان (كشاجم والصنوبري)[١] وذلك لما تحويه بيئتهم الشامية من اختلافات مناخية، فبيئة الشام غزيرة المطر شتاءً، وتسقط الثلوج عادة من شدة البرودة.

الصنوبري هو أول الشعراء الذين التفتوا إلى جمال الثلج، ولكن لم يرد له أشعار كثيرة في هذا الأمر، أما كشاجم فقد فُتن أيضاً بجمال الثلج وتميز في وصفه بين شعراء بني حمدان وانفرد بها عن ابن وكيع التنيسي.

وكان كشاجم يصف الثلج في لونه الأبيض الجميل عند وقوعه على الأرض بقطعة الفضة التي سبكها الصائغ، وأيضا يشبه حصى الكافور المندثر والأرض فرحة بهذا المنظر وتحولت للون الأبيض كأنها هرمت، وشبه الأشجار بعد نزول الثلج عليها بأنها مُزينة بملاءة بيضاء، وشبه تحول لون أغصانها إلى اللون الأبيض بدلاً من الأخضر كالدر على قضيب زبرجد، وشبه أغصانها السوداء كعود الهند الطري، ووصف رائحة الجو بالعنبر والمسك، فقال[٢]:

الـــثلج يســـقط أم لجـــين يســـبك * أم ذا حصـــى الكـــافور ظـــل يفـــرك؟**

راحـــت بـــه الأرض الفضـــاء كأنهـــا * مـــن كـــل ناحيـــة بثغـــرك تضـــحك**

شـــابت معارفهـــا فبـــين ضـــحكها * طريـــاً وعهـــدى بالمشـــيب ينســـك**

أوقـــي علـــى خضـــر الغصـــون فأصـــبحت * كالـــدر فـــي قضـــب الزبرجـــد يســـلك**

وتـــزين الأشـــجار منـــه مـــلاءة * عمـــا قليـــل بالريـــاح تهتـــك**

كانـــت كعـــود الهنـــد طـــرى فانكفـــا * فـــي لـــون أبـــيض وهـــو أســـود أحلـــك**

والجـــو مـــن أرج الهـــواء كأنـــه * ثـــوب يعنبـــر تـــارة ويمســـك**

ب . البرق والسحاب والغيث:

لقد زاد اهتمام شعراء العصر العباسي بالبرق والسحاب والغيث نتيجة للطبيعة الصحراوية التي نشأوا بها، فكشاجم يشبه الغيث بالإنسان الضاحك الذي يُبسط ويقبض كفيه، ويشبه قطراته بحبات اللؤلؤ، كما شبهه بالجيش الذي ينشر جماعاته وفرقه في كل مكان، فقال كشاجم[٣]:

غيـــث أتانـــا مؤذنـــا بخفـــض * متصـــل الويـــل حثيـــث الـــركض[١]**

(١) مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٣٦٢.
(٢) كشاجم: ديوانه ص ٣٠٦، ٣٠٧.
(٣) كشاجم: ديوانه، ص ٢٣٦.

يقضـــى بحكـــم الله فيمـــا يقضـــى * كـــالجيش يتلـــو بعضـــه لـــبعض**

يضـــحك عـــن يـــرق خفـــي النـــبض * كـــالكف فـــي انبســـاطها والقـــبض**

دنـــــا فخلنـــــاه فويـــــق الأرض * متصـــــلاً بطولهـــــا والعـــــرض**

إلفـــا إلـــى إلـــف يســـر يقضـــى * ثـــم همـــى كـــاللؤلؤ المـــرفض**

وكشاجم يرى الغيث رمزاً للكرم والعطاء فهو شهر مُبشر بالخير، ويمليء الروضيات بالرياحين، ويحول اليابس إلى الأخضر، فقال(٢):

أرتـــك يـــد الغيـــث آثارهـــا * وأعلنـــــت الأرض أســـــرارها**

وكانـــــت أكنـــــت لكانونهـــــا * خبيـــــا فأعطتـــــه أذارهـــــا**

فمـــا تقـــع العـــين إلا علـــى * ريـــاض تصـــنف أنوارهـــا**

إذا مزنـــــه ســـــكبت ماءهـــــا * علـــى بقعـــة اشـــعلت نارهـــا**

الفرع الرابع

الفصليات

شعر الفصليات من الموضوعات المستحدثة في الشعر العباسي، وظهر نتيجة لامتزاج الحضارات والثقافات وظهور مجالس اللهو والغناء، فلقد جذبت فصول السنة وتغيراتها انتباه الشعراء وخاصة فصل الربيع، فهو بمثابة عروس الفصول في نظر الشعراء، لما يضفيه على الكون من نباتات وأزهار مختلفة، يقول صاحب الأعلاق الخطيرة عن وصفه للربيع في حلب: " وماؤها صاف وسعدها وافي، وأنوارها مشرقة، وأزهارها مؤنقة، وأنهارها غدقة، وأشجارها مثمرة، جامعة لأشتات الفضائل ما تعجز عنه الأوقات(٣).

فالربيع مصدراً للسعادة والراحة، وفيه تتلون الأرض وتضيء بأزهاره الجميلة المختلفة الأشكال والألوان والأنواع، ويدعو كشاجم إلى استقبال فصل الربيع والترحيب به، فقال(٤):

حـــى الربيـــع تحيـــة المســـتقبل * أهـــدى الســـرور لنـــا بغيـــث منســـبل**

متكـــاتف الأنـــواء منغـــدق الحيـــا * هطـــل النـــدى هـــزم الرعـــود مجلجـــل**

(١) الويل والوابل: المطر الشديد الضخم القطر. لسان العرب: مادة (ويل).
(٢) كشاجم: ديوانه، ص ١٧٧.
(٣) ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى زكريا عبادة، طبعة وزارة الثقافة، دمشق، ط ١، ١٩٩١م، ج ٢، ص٣٦٤.
(٤) كشاجم: ديوانه، ص ٣٤٠.

جـــاءت بعـــزل الجـــذب فيـــه فبشـــرت * بالخصـــب أنـــواء الســـماك الأغـــزل**

ويؤكد كشاجم على ضرورة الترحيب بفصل الربيع، فهو رمز السعادة ومبعث الأمل، ويصف أزهار الربيع بالغيث، ويصف رياحه بنسيم الصبا العليل، وسمائه مليئة بالغيوم، والبدر يضيء في سمائه كالقبس المنير، فقال[١]:

حـــى الربيـــع تحيـــة المســـتقبل * أهـــدى الســـرور لنـــا بغيـــث منســـبل**

المطلب الثالث

الطبيعة

متكـــاتف الأنـــواء منغـــدق الحيـــا * هطـــل النـــدى هـــزم الرعـــود مجلجـــل**

جـــاءت بعـــزل الجـــذب فيـــه فبشـــرت * بالخصـــب أنـــواء الســـماك الأغـــزل**

متكاتف الأنواء منغدق الحيا * هطـــل النـــدى هـــزم الرعـــود مجلجـــل**

جـــاءت بعـــزل الجـــذب فيـــه فبشـــرت * بالخصـــب أنـــواء الســـماك الأغـــزل**

الصناعية في الشعر العباسي

اتخذ الشاعر الجاهلي من البيئة مصدر الإلهام وفُتن بجمالها، وأخذ يُعبر عن حبه لها في أصدق التعبيرات، وشغف بالروضيات وما بها من أزهار وثمار وورود ووصف ألوانها المختلفة ورائحتها العطرة، وكان يعيش حياة الرفاهية ويذهب إلى الديارات المنتشرة في جميع الأنحاء، وبها يقضي أفضل الأوقات ويلهو ويتمتع ويشرب الخمر.

الفرع الأول

الديارات

موضوع الديارات من المضامين الجديدة المستحدثة عند شعراء بني حمدان وأثرت في الحياة الأدبية، فوصفوا دير الزعفران، ودير زكي، ودير سعيد، ودير مروان، ودير القصير، والديارات جمع لكلمة الديرة أو الدير، وهناك جمع تكسير وهو الأديرة، ولكن لفظ الديارات هو اللفظ الأكثر شيوعا عند الشعراء، ومن أكثر الأشعار التي ارتبطت بالديارات شعر الخمر والغزل والصيد والطرد وغيرها من الموضوعات، وكانت الديارات منتشرة في مدن بني حمدان في الموصل، وديار بكر، وحلب.

وأوضح الدكتور مصطفى الشكعة إلى أن "الأديرة لعبت دورا خطيرا في الحياتين الاجتماعية والأدبية، فقد كانت بلاد الشام والجزيرة حافلة بالأديرة الكبيرة الغنية، التي كان يتردد عليها الشعراء، وطلاب المتع، يعبون من خمرها المعتقة، ويستمتعون بمغانيها وبساتينها، ويقضون فيها أياما نظير أجر معلوم"[٢].

ووصف كشاجم الديارات بأنها ذات مساحات واسعة، وحدائق خلابة، وبساتين، وثمار متنوعة، فقال[٣]:

ومنشـــد حـــين يبـــديها النـــوال لنـــا * ألمـــع بـــرق بـــدا أم ضـــوء مصـــباح؟**

أخلقـت فـي العمـر عمـرى حـين راح إلـى * غيـــر البطالـــة قلبـــى غيـــر مرتـــاح**

(١) المصدر السابق، ص ٣٤٠.
(٢) مصطفى الشكعة: سيف الدولة الحمداني أو (مملكة السيف ودولة الأقلام) مكتبة المتنبي، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧م، ص١٧٠، ١٧١.
(٣) كشاجم: ديوانه ص ٨٧.

مـــا نـــور أحـــداقنا إلا حدائقـــه * لام اللـــوائم فيـــه أو لحـــى اللاحـــي**

بســط البنفســج والمنثــور بســط فــي * صـــحون آس وخيريـــات تفـــاح**

بـــدائع لا لـــدير العلـــث هـــن ولا * لـــدي حلـــة مـــن ذات الأكيـــراح**

وعبر كشاجم عن مدى إعجابه بحدئق الدير وانتشار زهرة البنفسج وثمار التفاح فيها، ويلقي كشاجم التحية على دير القصير ويرحب به، ويصف الأوقات التي كان يقضيها فيه ويحكي مغامراته في وقت الأسحار، ويصف الطعام، والخمر وشربه، وكيف كان يقضي وقته من الصباح حتى وقت السحر فقال[١]:

ســلام علــى ديــر القصــير وســفحه * فجنـــات حلـــوان إلـــى الـــنخلات**

منـــازل كانـــت لـــى بهـــن مـــآرب * وكـــن مـــواخيري ومنتزهـــاتي**

إذا جئتهـــا كـــان الجيـــاد مراكبـــي * ومنصـــرفي فـــي الســـفن منحـــدرات**

فـــأقتنص بالأســـحار وحشـــى عينهـــا * وأعـــدو علـــى الإنـــس فـــي الظلمـــات**

معـــى كـــل بســـام أغـــر مســـاعد * علـــى كـــل مـــا يهـــوى النـــديم مـــواتى**

وجـــرد كاغنـــاق الظبـــاء صـــوارم * تبـــادر فـــي مضـــمارها القصـــبات**

ولحمـــان ممـــا أمســـكته كلابنـــا * علينـــا وممـــا صـــيد بالشـــبكات**

طعـــام إذا مـــا شـــئت بـــاكرت طبخـــه * علـــى كثـــرة مـــن علمتـــي وطهـــاتي**

وصـــفراء مثـــل التبـــر يحمـــل كأســـها * شـــديد فتـــور الطـــرف واللحظـــات**

كـــأن قضـــيب البـــان عنـــد اهتـــزازه * تعلـــم مـــن أطرافـــه الحركـــات**

وكان كشاجم يفضل الليل في دير مران ويشكره لقصر مدّته، وأيضا يصف حدائقه وبساتينه وأزهاره الجميلة وأشجاره المثمرة، ويحكي مغامراته فقال[٢]:

(١) كشاجم، ديوانه، ص٥٤.
(٢) كشاجم: ديوانه، ص٤٤٢، ٤٤٣.

سـقيا لليـل قصـرت مدتـه * بـدير مـران مـر مشـكوراً**

يـوم أتينـاه زائـرين فصـا * دفنـا بـه روضـه ومـاخورا**

ويـات بـدر الـدجى يشغشـعها * نوريـة تلـبس الـدجى لـورا**

حتـى رأيـت الظـلام بدرجـة الـ * ـغرب وبـرد الصـباح منثـورا**

واخـتلط الليـل والنهـار كمـا * يخلـط كـف مسـكا وكـافورا**

الفرع الثاني

الروضيات

لفظ الروضيات من أهم الألفاظ المستخدمة في شعر الطبيعة في العصر العباسي، وذلك لأنه مصطلح يشمل وصف البساتين والحدائق والأشجار والزروع، ومختلف أنواع النباتات والفواكه.

اهتم كشاجم وابن وكيع التنيسي بالروضيات اهتماماً كبيراً، فكانوا يقضون فيها أجمل أوقاتهم ويلجأون إليها طلباً للمتعة واللهو وشرب الخمر، أي أنهم كانوا يهربون من أحزانهم وهمومهم ويتخذونها مصدراً لراحتهم النفسية، ويستوحون من جمالها إلهام شعرهم".[١]

ويرسم كشاجم صورة جميلة للروابي والبقاع وهى تتزين بجمال الطبيعة فقال:[٢]

قـد نظمـت حليهـا الروابـي * ونشـرت وشـيها البقـاع**

فـالزهر فـي الـروض لـى بسـاط * والغـيم فـي الجـو لـى شـراع**

أنظـر إلـى منظـر تولـت * صـنعته مزنـة صـناع**

للنبـت تحـت النـدى اضـطجاع * وللنـدى فوقـه اضـطجاع**

واستبشـرت تلكـم المغـاني * واستضـحكت تلـم الربـاع**

تـروى القلـوب العطـاش منـه * وتشـبع الأعـين الجيـاع**

حـديث أطيـاره صـياح * ولعـب أشـجاره صـراع**

(١) عوض على الغباري، شعر الطبيعة في الأدب المصري (القرن الرابع الهجري)، ص ١١.
(٢) كشاجم. ديوانه، ص ٢٥٧.

اشتملت هذه التعبيرات الجمالية على العديد من الصور البديعة التي تصور مدى جمال وحُسن الروضيات بما تحويه من أزهار ونباتات وطيور، وجسدها الشاعر في صورة سمات ومشاعر إنسانية حية، فصور الروبى بأنها ترتب حليها لتزداد جمالا مع ارتفاعها، وأن بساطها الأخضر مليء بالبقاع والأزهار الملونة الجذابة، ويمتلئ جوها بالغيم كالشراع، وشبه نباتها وأزهارها بالإنسان المضطجع تحت الندى، كما شبه الندى بالإنسان المضطجع فوق النبات والأزهار، وشبه الرباع بالإنسان الضاحك وهذه صورة جميلة توحي بالبهجة ومدى جمال الروضيات، كما شبه القلوب المشتاقة إلى جمال الروضيات بالإنسان العطشان، وشبه الأعين بالإنسان الجائع الذي يبحث عن منظر جميل ليشبع جوعه، وعبر الشاعر في النهاية عن مدى إعجابه بمنظر الطير وهو يتحرك في خفة فوق أغصان الأشجار.

ونظراً لطبيعة بلاد الشام الممطرة، استوقف كشاجم منظر الروضيات وهي مليئة بالأمطار وما تحدثه من تغيرات، فقال:[١]

وروض عن صنيع الغيث راض * كما رضى الصديق عن الصديق**

إذا ما القطر أسعده صبوحاً * أتم له الصنيعة في الغبوق**

يعير الريح بالنفحات ريحاً * كأن ثراه من مسنك سحيق**

كأن الطل[٢] منتثراً عليه * بقايا الدمع في خذ المشوق**

كأن غصونه سقيت رحيقاً * فما ست ميس شراب الرحيق**

كأن شقائق النعمان فيه * مخضرة كؤوس من عقيق**

كأن النرجس البرى فيه * مداهن من لجين للخلوق**

يذكرني بنفسجة بقايا * صنيع اللطم في الخد الرقيق**

لقد أعجب الشاعر بمنظر الروضيات وهي مليئة بالأمطار واستخدم التشبيهات للتعبير عن ذلك، فقد شبه الروضيات بالإنسان الراضي عما فعلته الأمطار به، فنتيجة لنزول المطر أصبح الرياض معطراً بعبير الأزهار، ورائحة ترابه كالمسك الجميل، كما شبه المطر المتبقي على أغصان الأشجار ببقايا الدمع على الخدود، وشبه الغصون بالإنسان الذي ارتوى خمراً فتمايل من أثر الخمر، وشبه زهر شقائق النعمان بكؤوس العقيق، كما شبه زهر النرجس بمداهن الفضة الفواحة بأطيب العطور، وفي النهاية ذكر الشاعر أن زهر البنفسج يذكره بما يفعله اللطم من أحمرار وجمال في الخدود الرقيقة.

ولقد وصف كشاجم أيضا منظر الأرض بعد نزول المطر عليها بأنه أبهى المناظر وأحسنها، فالأرض بما تحويه من نباتات وأزهار كأنها شكلت لوحة رائعة الجمال وزاهية بالألون، وشبه زهر السوسن والورد بخدود الفتيات العذارى، وشبه الفضة والنرجس بالعيون الناعسة، فقال:[١]

(١) كشاجم، ديوانه، ص ٢٨٦.

(٢) الطل: المطر الصغار القطر الدائم، وهو أرسخ ندى. ابن سيده: الطلب أخف المطر وأضعفه ثم الرذاذ ثم البعش، وقبلي: هو الندي، وقبلي: فوق الندي ودو بن المطر وجمعه طلال. ينظر: لسان العرب: مادة: (طل).

فـــالأرض تجلـــى بالنبـــات الغـــض * فـــي حليهـــا المحمـــر والمبـــيض**

مـــن سوســـن أحـــوى وورد غـــض * مثـــل الخـــدود نقشـــت بـــالغض**

وأقحـــوان كـــاللجين المحـــض * ونـــرجس ذاكـــي النســـيم بـــض**

مثـــل العيـــون رنقـــت للغمـــض * تزنـــو ويغشـــاها الكـــرى فتغضـــى**

المبحث الثاني

الطبيعة المتحركة في الشعر العباسي

الشاعر الجاهلي استطاع أن يُعبر عن الطبيعة أصدق التعبير وساعده في ذلك أنه كان بدوياً، وحين تحرر من قيود الماضي واختلفت الثقافات وانتقل إلى بيئة أخرى غير بدوية، أيضاً استطاع أن يصور الطبيعة مثلما صورها الأوربيون من بعد في بيئة مشابهة.

وفي نظر الشعراء العباسيين أن الطبيعة الحية أو المتحركة تشمل كل ما هو حي ماعدا الإنسان كالحيوان والطير والحشرات، وهناك آراء اختلفت مع رأي الشعراء العباسيين في هذا الأمر ويرون بأن أصناف الحيوان ليست ملائمة لمفهوم كلمة الطبيعة، وليست مثيرة للحس الذي ينبض بجمالها.

المطلب الأول

الطيور

لقد كان العصر العباسي بما يحويه من بيئة وثقافة وحضارة مجالاً ملائماً لتربية الطيور، فاستمد الشعراء العباسيين منها مصدرا لإضفاء روح الجمال والبهجة على شعرهم، فوصف كشاجم الطيور فوق أغصان الشجر في قوله[٢]:

أوبلـــق طيـــر وقعـــا علـــى القضـــب * فـــي ظـــل ســـدر مثمـــر دانـــي الهـــدب**

فيـــه لأنـــواع مـــن الطيـــر صـــخب * إذا الريـــاح زعزعـــت تلـــك الشـــعب**

واهتم النويري في (نهاية الأرب) والجاحظ في (الحيوان) والدميري في (حياة الحيوان الكبرى) بذكر أجناس الطيور وتقسيمها إلى طيور جارحة وأخرى أليفة، وصنفوا النوع الواحد من الطيور إلى عدة أجناس وألوان. فمن الطيور الأليفة الحمام، وهو لغة السلام ورمز العشق، ومعاني الحمام في المعاجم اللغوية تدور حول الجمال، والمرأة، والصوت، والدعاء، والهديل[٣].

ويؤكد د. علي أبو زيد " أن النصوص المتعلقة بشعر الحمام تدور حول إبراز الدور الذي يلعبه ذلك الطائر في حياة الإنسان، وخاصة في القالب الوجداني والإطار العاطفي والهيكل الإنساني"[٤].

وكان شعراء العصر العباسي مغرومون بأنواع الحمام وخاصة نوع يسمى (القمري)[٥]، فكانوا يتنافسون في وصفه ورثائه. فنجد كشاجم يرثي قمريه ويحزن كأنه فقد ابن من أبنائه، وجعل موته من باب غدر الزمان، وأخذ يرثي ويصف شكله، فقال:[٦]

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٢.
(٣) "مادة حمم التي تعنى وسط الصدر، والحمامة المرأة، والحمامة المرأة، والحمامة حلقة الباب، والحمائم: كرام الإبل " لسان العرب. مادة "حمام".
(٤) على أبو زيد: الحمام في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص٦١.
(٥) "القمرية ضرب من الحمام، والأنثي من القماري قمرية والذكر ساق حر، والجمع قماري غير مصدوف، قمر ابن منظور، لسان العرب، مادة (قمر).
(٦) كشاجم: ديوانه، ص٢٠١ – ٢٠٢.

غـــدر الزمـــان وجـــار فـــي أحكامـــه *** والـــــدهر عـــــين الخـــــائن الغـــــدار

وفجعـــــت بـــــالقمرى فجعـــــة ثاكـــــل *** ففقـــــدت منـــــه أصـــــنع الســـــمار

لـــــون الغمامـــــة والغمامـــــة لونـــــه *** ومناســـــــب الأقـــــــلام بالمنقـــــــار

ومطـــوق مـــن صـــبغ خلقـــه ربـــه *** طـــــوقين خلتهمـــــا مـــــن النـــــوار

ولطالمـــا اســـتغنيت فـــي غلـــس الـــدجى *** بهديلـــــه عـــــن مطـــــرب الأوتـــــار

لهفـــا علـــى القمـــرى لهفـــا دائمـــاً *** يكـــوى الحشـــى بجـــوى كلـــذع النـــار

ولقـــد هجـــرت الصـــبر بعـــد فراقـــه *** ولقـــد مزجـــت دمـــا بـــدمع جـــارى

مـــا كنـــت فـــي الأطيـــار إلا واحـــداً *** هيهـــــات أودى ســـــيد الأطيـــــار

المطلب الثاني

الأسماك

صيد الأسماك في الأنهار والبحار كان يقتصر على الأثرياء وكبار رجال الدولة في العصر العباسي، وكانوا يتخذونه وسيلة لأخذ قسطاً من الراحة والرفاهية.

ولقد عبر كشاجم عن الأسماك في شعره باختلاف أنواعها وألوانها، ووصف السمكة في جمالها بأيدي النساء الحسناوات، وشبهها بالذهب في لمعانه، فقال[١]:

يـــــا رب نهـــــر مـــــدفا مـــــلان *** جـــــم المـــــدود معمـــــر المغـــــاني

الـــــــدحر والشـــــــبوط والبنـــــــان *** كـــــالطلع مجنيـــــاً مـــــن الجنـــــان[٢]

أو كقـــــــــدود أذرع الغـــــــــواني *** مكســـــوة مـــــن صـــــنعة الـــــرحمن

كأنمـــــا ينظـــــر مـــــن عقيـــــان *** أو يتطـــــــــــرفن بـــــــــــأرجوان

(١) المصدر السابق، ص٤٣٢.

(٢) الشبوط: سمك دقيق عريض الوسط لبن الملمس صغير الرأس وجمعه شبابط.

المطلب الثالث

الحيوانات

لقد كان كشاجم ولوعاً بالصيد، وقدوته في ذلك الملوك، فكان يتخذها هواية يمارسها وليست وسيلة لكسب العيش، إذ إن "الفرق بين الملك المتصيد والقانص المكتسب، أن الملك هو الذي يطارد بخيله وكلابه وجوارحه، ويضجر الوحش ويؤذيها ولا يطلب غراتها، والمتعيش من القنص هو الذي يغتال بشباكه، وحبائله، ويخفي شخصه[١]" ووصف في شعره حياة بعض الحيوانات، ولكنه كان يكره من الحيوانات القرد والفأر لقبحهما، والحمار لبلادته، والضفدع لقبح صوتها، ووظف ذلك في شعر الهجاء الساخ[٢]

واتخذ كشاجم الحيوانات رموزاً وأمثلةً لوصف شعره وبيان مقصده، فمثلاً اتخذ الضب والنون (الحوت) مثالاً للتفريق بين غلمانه ومعرفة قدراتهم، فالأول حيوان صحراوي والثاني حيوان مائي ولا يلتقيان، فقال[٣]:

ســـــائس غلمـــــان رفيـــــق بهـــــم * رفقـــا تـــواخى فيـــه ضـــب ونـــون**

الفرع الأول

الحيوانات الأليفة

أ . الخيل

هي رمز القوة والعزة والجمال، فوصفها كشاجم في ديوانه قائلاً: "هي خيل جسيمة طويلة العظام (فوق ظهر سلهبة) وهي قصيرة الشعر أصيلة "الجرد الجياد" نحيلة الخصر، كالسهم قبل أن يراش وينصل "ضمر الأحشاء كالقداح"[٤] واذا أخرجت ألسنتها من أشداقها، فأنها تشبه السيوف المستله من الأغماد، فيقول كشاجم:[٥]

تصـــف البـــيض والجفـــون إذا مـــا * أخرجـــت ألســـنا مـــن الأشـــداق**

وشبهها عندما إذا جردت من لباسها بأنها تكشف عن جسم جميل، وكأن تموجات متنية من ثوب مزركش بالذهب، فقال:[٦]

كـــــــــأن متينـــــــــة إذا * مـــــا عنهمـــــا الجـــــل كشـــــط[٧]**

مـــــــــلاءة موشـــــــــية * فيهـــــا مـــــن التبـــــر نقـــــط**

كـــــــــأن أذنيـــــــــه إذا * ريـــــــع بشـــــــخص فـــــــاختلط**

أحســـــن مـــــا يكتـــــب فـــــي الـــــ * قرطـــــاس مـــــن "لا" إذ تخـــــط**

ويصف كشاجم فرسه ويقدم الأدلة لمن يشك في قدراته، ويشبهه بالماء في تدفقه، وأنه سريع الإقبال، ويشبه في حركته بحركة البركار، ورائحة جلده عطرة، وقلادته من العتيق الثمين، فقال[٨]:

(١) كشاجم: المصايد والمطارد، ص١٥-١٦.
(٢) المصدر السابق، ص٣٤، ص١٨٤، ص٢٦٩، ص٤١٨.
(٣) كشاجم: ديوانه، ص٤٠٤.
(٤) كشاجم: ديوانه، ص٥٤، ص٨٤، ص١٢١، ص٢٠٦.
(٥) المصدر السابق: ص٢٨٠.
(٦) المصدر السابق، ص٢٢٤٧ – ٢٤٨.
(٧) الجل: ما تلبسه الدابة لتصان به.
(٨) كشاجم: ديوانه، ص١٥٢.

مـــن شـــك فـــي فضـــل الكميـــت فبينـــه * فيـــــه وبـــــين يقينـــــه المضـــــمار**

مـــــن منظـــــر مستحســـــن محمـــــودة * آثـــــــاره إذ تبتلـــــــى الأخبـــــــار**

مـــــاء تـــــدفق طاعـــــة وسلاســـــة * فـــإذا اســـتدر الحضـــر منـــه فنـــار**

وإذا عطفـــــت بـــــه علـــــى نـــــاورده * لتـــــــديره فكأنـــــــه بركـــــــار[١]**

وصـــــف الخلـــــوق أديمـــــه فكأنمـــــا * أهـــــدى الخلـــــوق لجلـــــده عطـــــار**

قصـــــرت قـــــلادة نحـــــرد وعـــــذاره * والرســـع وهـــي مـــن العتيـــق قصـــار**

وكأنمـــــا هاديـــــه جـــــدع مشـــــرف * وكأنمـــــا للضـــــبع فيـــــه وجـــــاز**

يـــرد الضحاضـــح غيـــر ثـــاني ســـنبك * ويـــــرود طرفـــــك خلفـــــه فيحـــــار**

ويصف كشاجم الخيل في سرعتها بأنها أسرع من لمح البصر، وتهز ذيلها في السير، ويصفها بأنها دائمة الحركة وسريعة العدو، ويشبهها بكلاب الصيد، والشاعر كعادته في الصيد، يخرج منذ الفجر مع أصدقائه، فقال[٢]:

وحبـــــــذا يـــــــوم بكرنابـــــــة * والفجـــــر قـــــد أســـــفر اســـــفاراً**

وكلنـــــــا مبـــــــتهج ممـــــــتط * طرفـــــا يفـــــوت الطـــــرف خطـــــارا**

كأنـــــه مـــــن عظـــــم تزكيبـــــه * صـــــــوره الجبـــــــار جبـــــــارا**

يخطـــــوا علـــــى صـــــم إذا حتهـــــا * ألقـــــت علـــــى الأحجـــــار أحجـــــارا**

كأننـــــا فـــــي وقـــــت إرســـــاله * نضـــــرم فـــــي أغطافـــــه نـــــارا**

يحـــــــب خبابـــــــا ســـــــلوقية * تفـــــــوت أوهامـــــــا وأبصـــــــارا**

ووصف الشاعر الفرس بشكل معنوي، في قوله[٣]:

مـــن كـــل طـــرف ســـابح طمـــاح * مناســـــب للبـــــرق والريـــــاح**

(١) ناورد: لفظ فارسي بمعني القتال وجولان الخيل في الميدان.
(٢) كشاجم: ديوانه، ص٤٤٣ – ٤٤٤.
(٣) كشاجم: ديوانه، ص٨٤.

يطيـــره الخضـــر بـــلا جنـــاح * خـــال مـــن الجـــزان والجمـــاح**

وكانت رياضة سباق الخيل من أكثر الرياضات المنتشرة في هذا العصر، مما أدى إلى كثرة الملاعب التي يجرى عليها السباق وكانت تضم الكبار والأثرياء"[١]، وكان يتم اختيار الفرس من أصول كريمة الأعراق فقال[٢]:

ومعـــد للصـــيد منتخبـــات * مـــن أصـــول كريمـــة الأعـــراق**

وأما في وصف كشاجم لألوان الخيل فنجده يعبر عنها " ذي بهمة" وهو اللون الأسود الحالك فقال[٣]:

ذى بهمـــة تضـــحك عـــن أوضـــاح * كأنـــه ليـــل علـــى صـــباح**

والخيل الأحمر والأسود "الكميت"[٤]، والأسود "أدهم" ولكن قوائمه وناصيتها بيضاء فقال [٥]:

أوبـــادر الســـيل بـــدر * أدهـــم كالليـــل اعتكـــر**

لـــولا الحجـــول والغـــرر * ومطلـــق الحـــد ذكـــر**

ب . الإبل:

قال كشاجم في مدح الحسن بن علي التنوخي وتشبيهه بالأسد[٦]:

أســد وبــيض الهنــد مــن أظفــاره * صــل وســمر الخــط مــن أنيابــه[٧]**

ولقد اهتم كشاجم بالحيوانات عموما واهتم بصفاتها وطباعها الغرائزية، وكان هذا واضحا في كلامه عن الإبل حيث ضرب مثال لأحد الأشخاص لكي يسمعه، فقال[٨]:

إن كنـــت تنكـــر أن فـــي الـــ * ـــألحان فائـــدة ونفعـــاً**

فـــانظر إلـــى الإبـــل التـــى * هـــى ويـــك أغلـــط منـــك طبعـــاً**

تصـــغى لأصـــوات الحـــدا * ة فتقطـــع الفلـــوات قطعـــا**

وقال كشاجم أيضاً في مدح الإبل وهي تسمع الأنغام[١]:

(١) يوسف بكار: عصر أبى فراس الحمداني، ص١٠٤.
(٢) كشاجم: ديوانه، ص٢٨٠.
(٣) المصدر السابق، ص٨٤.
(٤) المصدر السابق: ص١٥٢.
(٥) المصدر السابق، ص٢١٤.
(٦) كشاجم: ديوانه، ص١٨.
(٧) الصل: الحية التي لا ينفع العضتها علاج، الخط الرمح.
(٨) كشاجم: ديوانه، ص٤٥٤.

وتشـــــوفت للصـــــوت مـــــن * حـــاد تصـــيخ إليـــه ســـمعا**

دهلـــت عـــن المـــاء الـــذى * تلتـــــذه بـــــزداً ونفعـــــاً**

شـــوقاً إلـــى الـــنغم التـــى * أطرينهـــا لحنـــاً وســـمعا**

ج . البرذون[٢]:

البرذون هو حيوان أقرب في شكله إلى الخيل، وفي رأي كشاجم هو أبهى وأجمل من الخيل، ويرى في موته فجيعة وألماً بقلبه، ويشبهه بالموج في علوه وارتفاع همته، فقال[٣]:

وأرى العـــزاء جفـــاك حيـــبن عـــرا * ك الـــدهر بـــالمكروه فـــي الأبلـــق**

زيـــن المواكـــب أمتطيـــه فينـــ * ـــجيني ويلحقنـــي ولا يلحـــق**

يمشـــى وتجـــرى الخيـــل فـــي ســـنن * فيجـــئ ســـابقها ولا يســـبق**

كالموجيســـمو إن علـــوت بـــه * شـــرفا وفـــي لوهـــدات كـــالزئبق**

صـــافى الأديـــم يشـــوب أبيضـــه * مـــن صـــفرة لمـــع لهـــا رونـــق**

كالمزنـــة البيضـــاء خالطهـــا * شـــفق الغـــروب فلونهـــا مشـــرق**

وكأنمـــا أهـــدى لمقتلـــه الـــ * ـــياقوت مـــن أحجـــاره الأزرق**

د . الظبي

كان كشاجم وابن وكيع يتخذان الظبي رمزاً لوصفهم محبوبتهم، وهناك مفردات عديدة للظبي كالريم والرشا والشادن، وعيون الظبي كحور العيون، فيشبه كشاجم ساقية الخمر الرومية كالظبية في عينها، فقال[٤]:

وأحـــور مـــن ظبـــاء الـــروم ســـاق * كغصـــن البـــان تثنيـــه الريـــاح**

وتخيل الشادن معشوقته، في قوله[٥]:

كلف الفؤاد بشادن أبصرته * في نأتم يبكى بطزف أدعج**

(١) المصدر السابق، ص٤٥٤.
(٢) البرذون: هو حيوان أقرب في هيئته بالخيل، وكان وسيلة للركوب الخاصة الناس وأغنيائهم، فهو زين المواكب.
(٣) كشاجم: ديوانه، ص ٢٨٩.
(٤) كشاجم: ديوانه، ص٩٠.
(٥) المصدر السابق، ص٦٦.

واتخذها رمزاً للمدح في قوله [١]:

غزال كلما ازددت اقتراباً * إليه زاد بغداً وانقباضاً**

وقال في المدح أيضاً وتشبيه الشادن بالمعشوقة[٢]:

فتنتني بدلها * ظبية لم تحرجا**

اتخذ كشاجم الرشا رمزاً للنحافة وطول العنق، في قوله[٣]:

جاذبنيها رشا أعيد * فجاذب النفس بها محرجه**

وصف كشاجم طعم الظبي اللذيذ في الأكل، فقال في وصفها[٤]:

لنا شرائح من ظبي قنصناه * وعند طباخنا جذى قرضناه**

الفرع الثاني

الحيوانات المفترسة

أ . الأسد

اتخذ الشعراء الأسد رمزاً للتعبير عن الشجاعة والقوة، واستخدموه في تشبيه ومدح الفرسان، ومفاخر قبائلهم وانتصاراتهم، وأطلق على مراثي قتلاهم وموتاهم نعوت الأسد"[٥]، واستخدم الشاعر العديد من الاسماء التي تدل عليه، كالهزبر والضيغم، والليث"[٦]، فقال[٧]:

كالأسد بأساً في الوغى * والغيث إن عم القحط**

وغير الشاعر من الطبيعة المألوفة عن الأسد، وشبهه كأنه يعانق محبوبته، فقال[٨]:

وعانق الليث ظبي الـ * كناس في ميس مجسد[٩]**

ب . النمر

مدح كشاجم النمر في شعره، ووصف جمال جلده، وقوته وسرعته، فقال:

وكـــالح كالمغضـــب المهـــيج * جهـــم المحيـــا ظـــاهر النشـــيج**

يكشـــر عـــن مثـــل مـــدى العلـــوج * أو كشـــبا أســـنة الوشـــيج**

مـــدبج الجلـــد بـــلا تـــدبيح * كأنـــه مـــن نمـــط منســـوج**

تريـــك فيـــه لمـــع التـــدريج * كواكبـــا لـــم تـــك فـــي بـــروج**

(١) المصدر السابق، ص٢٣٢.
(٢) المصدر السابق، ص٦٥.
(٣) المصدر السابق، ص٦٣.
(٤) كشاجم: ديوانه، ص٤٧٧.
(٥) إسماعيل أحمد شحاده العالم: وصف الطبيعة فى الشعر الأموي، مؤسسة الرسالة، دار عمار، د.ت، ص ١٩٥.
(٦) كشاجم: ديوانه، ص١٨، ص٤، ص١٩، ص١٢٠.
(٧) المصدر السابق، ص٢٤٦.
(٨) المصدر السابق، ص١٣٣.
(٩) الكناس: بيت الغزال في الشجر الكثيف الملتف.

الخاتمة

في النهاية قد أدركنا ملامح وصف الطبيعة في العصر العباسي، وكيف كان الشاعر في وصف الطبيعة يعبر عن نفسه أصدق التعبير، وهذا نتاج طبيعي لتلك البيئة الصحراوية التي ملكت على الشاعر نفسه، ففتن بها، وأحسن التعبير عن مشاعره حيالها، وظلت الطبيعة منزل وحي الشاعر.

وشعر الطبيعة هو الشعر الذى يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه، وكانت البيئة الشامية والمصرية آنذاك أرضا خصبة وينبوعا وافرا أفرز لنا غررا من الشعر الواصف للطبيعة والتي فتن بها الشعراء، وأخذ الشاعر يتأمل فيها، ويبثها آلامه، وينسى عندها أحزانه، ويحبها، ويفتن بها، كما امتثلتها نفسه.

وصورة الطبيعة هي رؤية الشاعر لطبيعته التي يعيش فيها، على اختلاف مكوناتها، فنجده يستمد منها إلهامه ويتخذ صورها (الصامتة والمتحركة) رموزا للاستناد عليها في شعره، ويبدع في وصف الطبيعة بأصدق التعبيرات والكلمات، فيصف الأشجار والأزهار والثمار والسماء والأنهار ويتأمل شكلهم، وكذلك يصف الحيوانات والأسماك باختلاف أنواعهم وألوانهم ويتعجب من صفاتهم وطباعهم، ولا يكتف بهذا الأمر وبذكر صفات الأشياء فقط بل أنه اتخذها صوراً موحية وتشبيهية في مدحه ورثائه وغزله.

فالطبيعة مصدر إلهام للشعراء، يأوون إليها متأملين ظواهر الحياة والكون، ويفزعون إليها مستلهمين وحي الشعر، والطبيعة أوسع منابع الكون غنى، فهي ملهمة الفنان، ومصدر الوحي، ومنبع الإلهام والطبيعة الجميلة بملامحها الرائقة، ومناظرها الرائعة، تهوى إليها أفئدة الناس مهما تفاوتت بيئاتهم، وتباينت ثقافتهم والإنسان بفطرته كلف بالطبيعة، مقدس جمالها، يفزع إليها في أشجانه ليجد في أحضانها سلوته وعزاءه، ويهرع إليها في مسراته.

ودراسة الطبيعة تعطي ملامح عامة لأهم السمات المشتركة الجامعة لكل الشعراء، والأخرى الفردية المتعلقة بكل شاعر مما تشكل نموذجا لمعجم شعري مشترك وخاص. وشعر الطبيعة هدية الحضارة العباسية للأدب العربي. وهو واحد من الموضوعات المهمة في هذا الأدب.

قائمة المراجع

- **ابن شداد** (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: **يحيى زكريا عبادة**، طبعة وزارة الثقافة، دمشق، ط ١، ١٩٩١م، ج ٢.
- **أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي**: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١.
- **إسماعيل أحمد شحاده العالم**: وصف الطبيعة فى الشعر الأموي، مؤسسة الرسالة، دار عمار، د.ت.
- **إيليا الحاوى**: فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب المصري، مصر، ط٣، ١٩٨٠م.
- **علي أبو زيد**: الحمام في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.
- **عوض علي الغباري**، شعر الطبيعة في الأدب المصري (القرن الرابع الهجري).
- **كشاجم**: ديوانه.
- **محمد عجينة**: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٤.
- **مصطفى الشكعة**: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.
- **مصطفى الشكعة**: سيف الدولة الحمداني أو (مملكة السيف ودولة الأقلام) مكتبة المتنبي، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧م.
- **يوسف بكار**: عصر أبي فراس الحمداني.